قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
أكتوبر – نوفمبر ٢٠١٦م
الحلقتان السَّادسة والسَّابعة

سرّ المعموديَّة كتابياً وزمانها ومكانها

سرّ المعموديَّة كتابياً

ترجع أهميَّة سرِّ المعموديَّة إلى تأكيد السيِّد المسيح نفسه في حديثه مع نيقوديموس، موضِّحاً ضرورة أنْ يولد الإنسان من الماء والرُّوح ولادة جديدة (يوحنَّا ٣:٥). وقد أعطى السيِّد الرَّب وصيَّته الأخيرة لتلاميذه قبل صعوده إلى السَّماء قائلاً: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس ...» (متى ٢٨:١٩). وهكذا مارس آباؤنا الرُّسُل القدِّيسون التَّعميد بعد تأسيس الكنيسة مباشرة يوم الخمسين[1].ومنذ ذلك الحين، أولت الكنيسة سرَّ المعموديَّة أهميَّة بالغة لتتميم وصيَّة الرَّب الأخيرة.

فيقول القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م):
[لقد قدَّس يسوع المعموديَّة باعتماده بنفسه ... إن كان ابنُ الله قد اعتمد فكيف يمكن أن يكون ورعاً من يحتقر العماد؟] (المقالة الثَّالثة: ١١).

وكانت المعموديَّة المسيحيَّة في الكنيسة الأولى تُمنح باسم الرَّب يسوع، على أساس نصوص كثيرة من سفر الأعمال. فلقد تحدَّث القدِّيسان بطرس وبولس الرَّسولان غير مرَّة، عن معموديَّة العهد الجديد، ناسبين إيَّاها إلى السيِّد المسيح. فنقرأ: «فقال لهم **بطرس**: توبوا وليعتمد كلٌّ واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطيَّة الرُّوح القُدُس» (أعمال ٢:٣٨). وأيضاً «(قال **بطرس**:) أتُرى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذي قبلوا الرُّوح القُدُس كما نحن أيضاً؟ وأمر أن يعتمدوا باسم الرَّب» (أعمال ١٠:٤٨). وأيضاً: «فقال **بولس** إنَّ يوحنَّا عمَّد بمعموديَّة التَّوبة، قائلاً للشَّعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده، أي بالمسيح يسوع. فلمَّا سمعوا اعتمدوا باسم الرَّب يسوع. ولمَّا وضع بولس يديه عليهم حلَّ الرُّوح القُدُس عليهم» (أعمال ١٩:٥).

وليس سفر الأعمال وحده هو الذي يدعوها باسم ''معموديَّة الرَّب يسوع''، بل إنَّ القدِّيس بولس الرَّسول يدعوها بهذا الاسم في رسائله، فيقول: «... لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرَّب يسوع وبروح إلهنا'' (١كورنثوس ٦:١١). فالغسل الذي يتكلَّم الرَّسول عنه هنا، هو غسل المعموديَّة. وهو نفس ما يقوله أيضاً ناسباً المعموديَّة المسيحيَّة إلى المسيح: «أيها الرِّجال أحبوا نساءكم كما أحبَّ المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدِّسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة» (أفسس ٥:٢٦). وأيضاً قوله: «مدفونين معه (أي مع المسيح) في المعموديَّة التي فيها أقمتم أيضاً معه، بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢:١٢). أو قوله: «فدفننا معه بالمعموديَّة للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدَّة الحياة» (رومية ٦:٤). ويوضح القدِّيس بولس أنَّ المعموديَّة تُمنح باسم المسيح، ولكن في صيغة غير مباشرة، حين يقول: «هل انقسم المسيح؟ ألعلَّ بولس صُلب لأجلكم، أم باسم بولس اعتمدتم؟» (١كورنثوس ١:١٣).

أمَّا أوضح نص كتابي يذكره القدِّيس بولس الرَّسول، مشيراً فيه إلى أننا نقبل المعموديَّة باسم المسيح، فهو قوله: «لأنَّ

[1] أعمال ٢:٣٨، ٨:٣٦-٤٨، ١٠:٤٨ ؛ ١كورنثوس ١٢:١٣ ؛ غلاطية ٣:٢٧ ؛ أفسس ٥:٤

كلّكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣:٢٧). ويعقِّب القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) على هذا النَّص فيقول:

[لا ينخدع أحدٌ عندما أغفل الرَّسول كثيراً اسم الآب والرُّوح القُدُس في الكلام عن المعموديَّة ... فاسم المسيح هو الإيمان كلُّه][٢].

• يشرح القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، أنَّ المعموديَّة باسم المسيح، تعني في ذات الوقت معموديَّة الآب والابن والرُّوح القُدُس. ويتساءل: وماذا تعني إذاً معموديَّة الرُّوح القُدُس؟ يجيب موضِّحاً أنَّ الرُّوح القُدُس هو الذي يقود إلى الاعتراف بالمسيح الابن، وإذ تتوشَّح النَّفْس بابن الله، تؤهَّل لأن تعتمد باسم الآب فيقول:

[... الرَّب نفسه أظهر أهميَّة المعموديَّة بالرُّوح القُدُس عندما قال «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الرُّوح هو روح» (يوحنَّا ٣:٦) ... وإذ صرنا هكذا مؤهَّلين أن يُصبح للرُّوح القُدُس موضعاً فينا، نصير بذلك قادرين على الاعتراف بالمسيح لأنَّه «ليس أحدٌ يقدر أن يقول إنَّ يسوع ربٌّ إلاَّ بالرُّوح القُدُس» (١كورنثوس ١٢:٣) ... وإذ نلنا المعموديَّة باسم الرُّوح القُدُس ووُلدنا من فوق في إنساننا الدَّاخلي ... حينئذ نصير مؤهَّلين لنوال المعموديَّة باسم ابن الله الوحيد ... «لأنَّ كلَّكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣:٢٧) ... وعندما تكون النَّفْس قد توشَّحت بابن الله، تصير مؤهَّلة للمرحلة النِّهائيَّة والكاملة، وتعتمد باسم الآب] (المعموديَّة ١:٢:٢٠-٢٦).

ثمَّ يعود القدِّيس باسيليوس ليؤكِّد على ما سبق أن قاله فيكرِّر:

[... لذلك كلُّ من اعتُبر جديراً بأن يعتمد باسم الرُّوح القُدُس ... يصير أهلاً لنوال المعموديَّة باسم الابن ويلبس المسيح بحسب قول الرَّسول ... وإذ قد لبسنا ابن الله الذي أعطانا السُّلطان أن نصير أبناء الله (يوحنَّا ١:١٢) حينئذ ننال المعموديَّة باسم الآب] (المعموديَّة ١:٢:٢٧).

ومنذ نهاية القرن الأوَّل المسيحي على أكثر تقدير، لم نعُد نسمع أنَّ المعموديَّة المسيحيَّة تُمنح باسم الرَّب يسوع، أو تُمنح باسم المسيح، بل تمنح في كلِّ مكان باسم الثَّالوث القدُّوس الآب والابن والرُّوح القُدُس. وهذه الحقيقة المؤكَّدة – أي حقيقة أنَّ المعموديَّة تُمنح باسم الثَّالوث القدُّوس – قد دفعت كثيرين من اللاَّهوتيِّين إلى تفسير النُّصوص الواردة عن المعموديَّة في سفر الأعمال – أو في بعض رسائل القدِّيس بولس الرَّسول – على أنَّها ليست صيغة للمعموديَّة، لكنَّها تهدف إلى التَّفريق بين المعموديَّة المسيحيَّة وتلك التي كان يمارسها يوحنَّا المعمدان.

فالنُّصوص الكتابيَّة التي سبق ذكرها عن المعموديَّة، تسمِّي المعموديَّة التي تُمنح باسم الثَّالوث كوصيَّة الرَّب، تسمِّيها ''معموديَّة الرَّب يسوع''، أو تسميها ''معموديَّة المسيح''، إذ بموجبها يُعطى الرُّوح القُدُس للمعمَّدين، وذلك للتَّفريق بينها وبين المعموديَّة التي كان يمارسها يوحنَّا المعمدان، والتي نُسمِّيها ''معموديَّة يوحنَّا المعمدان'' للتَّوبة، أو المعموديَّة التي كان يمارسها التَّلاميذ أنفسهم قبل صعود الرَّب إلى السَّماء، والتي دُعيت باسم ''معموديَّة التَّلاميذ''، كمعموديَّة للتَّوبة أيضاً «فلمَّا علم الرَّب أنَّ الفريسيين سمعوا أنَّ يسوع يُصيِّر ويُعمِّد تلاميذ أكثر من يوحنَّا، مع أنَّ يسوع نفسه لم يكن يُعمِّد بل تلاميذه ... » (يوحنَّا ٤:١، ٢).

ففي نهاية القرن الأوَّل الميلادي، نقرأ في كتاب ''الدِّيداخي'' أي ''تعليم الرُّسُل'' ما يلي عن المعموديَّة: ''أمَّا بشأن العماد، فعمِّدوا هكذا: بعدما سبقنا فقُلناه، عمِّدوا باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، بماء جارٍ. وإن لم يكُن لك ماء جار، فعمِّد بماء آخر. وإن لم يمكنك بماء بارد، فبماء ساخن. وإن لم يكن لديك كلاهما، فاسكب ماءً على الرأس ثلاث مرَّات، باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس. قبل المعموديَّة، ليصُم المعمِّد، والذي يعتمد، ومن يمكنه (ذلك) من الآخرين. وأوصِ الذي يعتمد، أن يصوم يوماً أو يومَين قبل المعموديَّة'' (ديداخي ٧:١-٤).

---

[٢] القدِّيس باسيليوس الكبير، الرُّوح القُدُس، ١٢:٢٨

أمَّا العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) فيعود إليه الفضل في وضع أوَّل بحث متكامل عن المعموديَّة المقدَّسة، موضِّحاً أنَّ منح المعموديَّة يكون بغطسات ثلاث في الماء، وواصفاً أجزاء أُخرى من الطَّقس مثل الصَّوم الذي يسبق المعموديَّة، والسَّهر اللَّيلي الذي يسبق ليلة المعموديَّة، وكذا الاعتراف بالخطايا، وجحد الشيطان، والاعتراف بالإيمان، ووضع اليد بعد التَّغطيس، واللَّبن والعسل اللَّذان يتناولهما المُعمَّد ودلالتهما الطَّقسيَّة. وكانت المعموديَّة في الكنيسة المسيحيَّة في عصورها المبكِّرة عملاً يختص بالأُسقُف وحده، كما في سرَّي الميرون والإفخارستيَّا.

زمان المعموديَّة

منذ القرن الثَّاني الميلادي وحتى الرَّابع، كانت المعموديَّة تُمنح في ليلة عيد الفصح، وعيد العنصرة. ولكن ظلَّ عيد الفصح هو المناسبة الأكثر شيوعاً بين الكنائس لممارسة المعموديَّة، إذ أصبح يسبقه فترة الصَّوم المقدَّس الكبير، وهي فترة مناسبة لإعداد الموعوظين المرشَّحين للمعموديَّة، وتهيئتهم بالتَّعليم لقبول السِّر. فنقرأ في القانون (٤٥) لمجمع اللاَّذقيَّة الذي عُقد سنة ٣٤٣م أنَّه بعد مرور أسبوعَين من الصَّوم الكبير لا يجوز قبول أحد إلى الاستنارة، لأنَّ الجميع يجب أن يبدأوا الصَّوم من أوَّله. وفي القانون (٤٦) لنفس المجمع نقرأ: ''إنَّ المزمعين أن يتعمَّدوا، يجب أن يتعلَّموا دستور الإيمان عن ظهر قلب، وأن يتلوه غيباً أمام الأُسقُف أو الكهنة في اليَوم الخامس من الأسبوع''[٣].

وبعد اكتمال فترة تعليمهم، كان المعلِّمون يأتون بهم إلى الأُسقُف ليتمكَّنوا في يوم السَّبت المقدَّس الكبير، وفي ليلة الفصح، من قبول المعموديَّة. وكان الموعوظون يعطون أسماءهم للأُسقُف قبل معموديَّتهم ببضعة أيام، لتُسجَّل في سجل خاص بذلك، ونعرف من العظة الثَّالثة عشرة عن الإيمان للقدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) أنَّ الوقت المعيَّن لإعطاء الأسماء، هو بدء الصَّوم الكبير. لذلك يأمر مجمع اللاَّذقيَّة في قانونه رقم (٤٥) السَّابق ذكره، أنَّ الذين لم يسجِّلوا أسماءهم في أوَّل الصَّوم لا يجوز قبولهم في المعموديَّة في يوم السَّبت المقدَّس العظيم.

ويحدِّد القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) ميعاد المعموديَّة بالضَّبط بأنَّها منتصف ليلة عيد الفصح، أي قبل بداية قُدَّاس العيد مباشرة. وفي حديث بهيج يعبِّر عن فرحة الكنيسة كلِّها بأعضائها الجُدُد يقول:

> [... بعد يومين يكون العُرس، قوموا أشعلوا مصابيحكم، وفي ضيِّها الوهَّاج استقبلوا ملك السَّموات. قوموا واسهروا لأنَّ العريس سيأتي ليس أثناء النَّهار، بل في منتصف اللَّيل، فهذه عادة الموكب الزِّيجي، أن تُعطى العروسة لعريسها مؤخَّراً في المساء ...] (تعليم المعموديَّة ١١:١).

إنَّ ليلة الفصح العظيم هي الحد الفاصل والمتوسِّط بين الحدثَين العظيمَين المقدَّسَين، وهما دفن الرَّب في القبر، وقيامته منتصراً على الموت بعد ثلاثة أيام. فصار الغطس في الماء ثلاث مرَّات، وخروج المعمَّد منه ثلاث مرَّات في هذه اللَّيلة المقدَّسة، هو مثالٌ حيٌّ لموت المسيح ودفنه، ثمَّ قيامته لخلاصنا[٤].

ومنذ القرن الرَّابع، أُضيفت إلى هاتين المناسبتَين السَّابقتَين، عيد الإبيفانيا، كمناسبة ثالثة في الشَّرق المسيحي لمنح سرِّ المعموديَّة. ثمَّ اجتاز هذا التَّقليد من الشَّرق المسيحي إلى شمال إفريقيا فإسبانيا وبلاد الغال. ولقد حافظت كنيسة أورشليم – ومعها الكنيسة الأرمينيَّة – على هذه المناسبات الكنسيَّة الثَّلاث في منح سر المعموديَّة[٥]، أمَّا كنيسة الإسكندريَّة فتشير الوثائق القديمة فيها إلى أنَّها كانت تمنح المعموديَّة في عيدي الفصح والظُّهور الإلهي (الغطاس). أمَّا بعض الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى – بحسب شهادة المؤرِّخ سقراط[٦] (٣٨٠-٤٥٠م) – فكانت تمنح المعموديَّة في ليلة عيد الغطاس فقط. أمَّا في إسبانيا وبلاد الغال،

---

[٣] أي يوم الخميس من كلِّ أسبوع، أو ربَّما يوم خميس العهد، وهو الأمر الأكثر احتمالاً.

[٤] انظر: حنانيا كسَّاب، مجموعة الشَّرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٢٣١

[5] *DACL*, t. 2, p. 295.

[٦] تاريخ الكنيسة لسقراط، كتاب ٥:٢٢
و''سقراط'' هو مؤرِّخ كنسي بيزنطي، وُلد في القسطنطينيَّة، وكَتَب تاريخه في سبعة كُتُب، كلُّ واحد منها يغطِّي تاريخ أحد الأباطرة بدءًا من

فإنَّ عيد الميلاد وبعض الأعياد الأُخرى، أصبحت هي أيضاً مناسبات كنسيَّة تُمنح فيها المعموديَّة، ممَّا دفع بعض أساقفة الكنيسة الرُّومانيَّة[٧] إلى الاعتراض على هذا التَّحديث، بينما ظلّ الشَّرق المسيحي محافظاً على التَّقليد القديم.

ولكن في حالات الضَّرورة القُصوى، وعند خطر الموت، كانت المعموديَّة تُمنح في أيِّ وقت، وفي أيِّ مكان، وبواسطة أيِّ مسيحي. ولكن طبقاً للعلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، وكتاب ''المراسيم الرَّسوليَّة''، وقوانين مجامع قرطاجنَّة الأربعة، أنه لا يجوز لامرأة أن تمنح المعموديَّة.

متى ظهر مسمَّى "أحد التَّناصير" كمناسبة للمعموديَّة في الكنيسة القبطيَّة؟

لقد ظلَّت عادة قبول المعموديَّة في ليلة عيد الفصح مرعيَّة حتى القرن الثَّاني عشر — باستثناء كنيسة مصر – إذ نجد شواهد على وجود معموديَّات في اللَّيلة الفصحيَّة حتى القرن الثَّاني عشر في الشَّرق والغرب. ولكن هذه المعطيات والتي تشهد على ارتباط المعموديَّة بليلة عيد الفصح تبدأ في النُّقصان منذ القرن التَّاسع والعاشر الميلادي، حتى تنعدم في المرحلة اللاَّحقة، أي منذ القرن الثَّاني عشر وما بعده[٨]. أمَّا في مصر فالأمر يختلف، إذ انفصلت عادة قبول المعموديَّة عن ليلة الفصح في وقت مبكر، أي بعد القرن الخامس الميلادي، بعد أن أصبح الصَّوم المقدَّس الكبير سبعة أسابيع إذ صارت المعموديَّة تُمنح في مصر في الأسبوع السَّادس من الصَّوم، بحسب التَّقليد القديم.

فبحسب التَّقليد القديم لكنيسة الإسكندريَّة، كان زمن الصَّوم المقدَّس الكبير هو ستَّة أسابيع شاملة فيها أسبوع البَصخة المقدَّسة، وذلك منذ أيام **البابا أثناسيوس الرَّسولي** (٣٢٨-٣٧٣م)، وحتى إلى ما بعد أيام **البابا كيرلُّس الكبير** (٤١٢-٤٤٤م). وفي هذه الفترة كانت مراسيم منح المعموديَّة تجري في الأسبوع السَّادس من الصَّوم المقدَّس الكبير، حيث تبدأ هذه المراسيم في يوم ''الجُمعة العظيمة'' وهو اليَوم الذي يُدعى ''يوم الاستعداد'' Parasceves ، ذلك لأنَّ اصطلاح ''الاستعداد'' Parasceves هو الاسم القديم ليوم الجُمعة العظيمة[٩]، فيوم الاستعداد هو بداية المراحل النِّهائيَّة لمراسيم المعموديَّة، إذ لم يكن ممكناً مع الأعداد الكبيرة التي تتقدَّم إلى المعموديَّة، أن تنحصر مراسيم طقوس معموديَّتها في يوم واحد، فصار يوم السَّبت المقدَّس العظيم، وقبل بداية صلوات عيد الفصح المقدَّس، هو يوم النُّزول إلى الماء للتَّغطيس فيه.

ولَّما حدث فصلٌ بين الصَّوم المقدَّس الكبير وصوم أسبوع البَصخة المقدَّسة، ليكون الصَّوم الأوَّل ستَّة أسابيع، والصَّوم الثَّاني أسبوعاً سابعاً — وذلك في غضون القرن السَّادس الميلادي تقريباً – صارت ''الجُمعة العظيمة'' هي الجُمعة السَّابعة من الصَّوم. وحفاظاً على التَّقليد القديم، ومع ازدياد الطُّقوس والألحان والصَّلوات الطَّويلة في يوم ''الجُمعة العظيمة'' لتغطِّي طيلة اليَوم كلَّه، انتقلت مراسيم طقوس المعموديَّة إلى الأسبوع السَّادس من الصَّوم، لتبدأ في يوم الجُمعة السَّادسة من الصَّوم، مع الصَّلاة على زيوت المعموديَّة، حيث تكتمل هذه المراسيم في الأحد السَّادس من الصَّوم، كما كان يحدُث في الطَّقس القديم. ولكن الفرق هنا، هو أنَّ الأحد السَّادس من الصَّوم، لم يُصبح هو أحد الفصح، بل الأحد السَّابق له.

ولَّما امتد زمن الصَّوم المقدَّس الكبير، ليصبح ثمانية أسابيع حوالي منتصف القرن السَّابع، بعد إضافة أسبوع **هرقل** (٦١٠-٦٤٠م) في مقدِّمته، احتفظ الأقباط بالأسبوع السَّادس من الصَّوم الكبير، ليكون هو أسبوع المعموديَّة، كما كان في الطَّقس القديم، فتزحزحت مراسيم الاستعداد للمعموديَّة، بما فيها الصَّلاة على زيوت المعموديَّة، تزحزحت إلى الجُمعة السَّادسة من

الإمبراطور ديوكلتيانوس، ليكمِّل تاريخ يوسابيوس القيصري. وعموماً فتاريخ سقراط هو تاريخ موضوعي، سهل الفهم، لكن معالجته للأحداث أقل تنوُّعاً، لا يميل إلى الجوانب اللاَّهوتيَّة في تاريخه. وقد أظهر تعاطفاً مع النُّوفاتيِّين. وبعد نشره لتاريخه، انهمك في تدوين كتابات البابا أثناسيوس الرَّسولي، والتي دفعه إليها الأخطاء الكثيرة التي وردت عنها في تاريخ روفينوس (٣٤٥-٤١٠م).

Cf. *ODCC*, 2nd edition, p. 1285.

[٧] مثل Siricius (٣٣٤-٣٩٩م)، ليو (لاون) الكبير (+٤٦١م).

[٨] مجلَّة النُّور، العدد السَّادس، لبنان، ١٩٨٥م

[9] *PG* xiv, col. 1047.

الصَّوم، ليكون يوم الأحد السَّادس من الصَّوم هو يوم المعموديَّة. وهنا ظهرت تسمية هذا الأحد بيوم ''أحد التَّناصير''. ومن أجل ذلك، فإنجيل قُدَّاس ''أحد التَّناصير'' هو عن المولود أعمى، وهو أحد أشهر رمزَين من رموز العهد الجديد عن سرّ معمودية الماء والرُّوح. ومن المبدع أن نعرف أيضاً، أنَّ يوم الجُمعة السَّابقة لأحد التَّناصير، وهي الجُمعة السَّادسة من الصَّوم الكبير، والتي كانت تبدأ عندها مراسيم الاستعداد للمعمودية منذ القديم، تتركَّز فيها حالياً قراءات القُدَّاس الإلهي عن المعموديَّة، كما أنَّ إنجيل القُدَّاس (يوحنَّا ٣:١-١٣)، هو عن المعموديَّة أيضاً. وهذا يريك الوقت الذي وُضعت فيه قراءات الصَّوم المقدَّس الكبير. فظُهور ''أحد التَّناصير''، والجُمعة السَّابقة له، في القرن السَّابع الميلادي، كان سابقاً على وضع القراءات الكنسيَّة للصَّوم الكبير، فجاءت القراءات موافقة لهذه المستجدَّات.

ويحدِّد القانون المصري (والمقصود به قوانين هيبوليتس) – ومعه الإثيوبي – أنَّ الاحتفال بمنح المعموديَّة المقدَّسة، يكون في فجر يوم الأحد، دون أن يحدِّد أنَّه يلزم أن يكون يوم أحد عيد القيامة بالتَّحديد. ولذلك فإنَّ ''أحد التَّناصير'' السَّابق ليوم أحد الشَّعانين، قد اختص بتعميد كثير من الأطفال، ليس في الكنيسة القبطيَّة فحسب، بل في كثير من الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى.

مكان المعموديَّة

يقول العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) في مقالته عن المعموديَّة:

[ليس فرقٌ سواء اعتمد إنسان في البحر أَم في بحيرة، أَم في نهر، لأنَّ الرُّوح الواحد هو نفسه يقدِّس المياه في كلِّ مكان، ويهب الرُّوح للمياه قوَّة التَّقديس بالاستدعاء والصَّلاة].

ولكن سرعان ما انحصرت مراسيم المعموديَّة داخل الكنيسة بعد انقضاء زمن الاضطهاد، وبناء الكنائس في كلِّ مكان، وذلك في حُجرة مخصَّصة للتَّعميد Baptistery يوجد بها جُرن المعموديَّة، كانت في البداية غير ملحقة بمبنى الكنيسة، ثمَّ أصبحت بعد ذلك ملحقة به، وجزءٌ من ملحقاته الثَّابتة. ويُدعى جُرن المعموديَّة في الكنيسة بـ ''الأردن''، وهو الاسم الطَّقسي التَّقليدي القديم له. فنسمع القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) يخاطب الموعوظين في عظة له قائلاً:

[تعالوا إلى نبع التَّقديس، حيث يوجد الأردن الذي اعتمد فيه المسيح، والذي فيه تغرق كلُّ الخطايا. والمعموديَّة في الأردن لا تستدعي السَّفَر إلى فلسطين، حيث يوجد النَّهر، لأنَّه حيث يوجد المسيح، يوجد الأردن، وبَرَكَة تقديس الأردن قد شملت كلَّ أنهار العالم] (عظة ٤١).

ومن المعروف أنَّ أقدم حُجرة معموديَّة في الكنيسة المسيحيَّة، كانت في عين دورا قبل سنة ٢٥٦م[١٠]. ويحتفظ الطَّقس القبطي بالتَّقليد القديم، بألاَّ يدخل الكاهن إلى حُجرة المعموديَّة إلاَّ في وقت تبريك مياه المعموديَّة لتتميم التَّعميد[١١]. وقبل القرن الرَّابع الميلادي، كان دهليز المعموديَّة أو رواق المعموديَّة في مصر القديمة يُبنى عادة خارج الكنيسة. ولكن فيما بعد، عَدَلَت الكنيسة عن تشييد حُجرة المعموديَّة خارجاً عن مبنى الكنيسة نفسه. ويذكر البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) في كتابه ''التَّرتيب الطَّقسي'' في القرن الخامس عشر الميلادي، أنَّ موضع الرُّشومات التي تسبق المعموديَّة، هو مكان غير حُجرة المعموديَّة ذاتها. فيقول: ''كلُّ كنيسة لها مكان بمفردها للرَّشم على عادتها''[١٢].

ومع شيوع معموديَّة الأطفال، اعتاد الأقباط تشييد جُرن المعموديَّة ليس بقرب البهو الخارجي للكنيسة وإلى النَّاحية البحريَّة منه، بل في أماكن أُخرى غير محدَّدة في كنائسهم، وأحياناً ضمن كنائس صغيرة جانبيَّة Chapelles[١٣].

---

[10] *ODCC*, 2nd edition, p. 129 .

[11] *Ibid*., p. 201.

[١٢] الأنبا غُبريال الخامس، التَّرتيب الطَّقسي، مرجع سابق، ص ٤

[13] *DACL*, t. 2, p. 259.

ومنذ القرن الثَّاني عشر في كنيسة مصر، حدَّد الأنبا بطرس أُسقُف البهنسا (القرن الثَّاني عشر) أن يكون بنـــاء حجـــرة المعموديَّة ناحية الشَّرق عن يمين الكنيسة، وهو الأُسقُف الذي وضع طقس تكريس المعموديَّة الجديدة. ولقد استقرَّ وضع جُرن المعموديَّة في الكنيسة الآن في النَّاحية الشَّرقيَّة القبليَّة منها.

تأخير المعموديَّة إلى قرب الوفاة

لقد سادت عادة كانت شائعة جدًّا في القرون الأربعة أو الخمسة الأولى، وهي تأخير المعموديَّة حتى إلى قُرب الوفـــاة، خوفاً من المسؤوليَّات التي يلتزم بها المعمَّد بعد نوالها. وكانت المعموديَّة في هذه الحالات تُمنح بدون مراسيم، ولقد اعتُبرت مثل هذه المعموديَّة ذات عائق قانوني يمنع الأشخاص الذين يتقبلونها من قبول أيَّة رسامات كهنوتيَّة لهم بعد ذلك. ولقد سُمِّيت هذه المعموديَّة Clinical Baptism من اللَّفظة اليونانيَّة κλίνη أو ما يقابلها في اللاَّتينيَّة clinici أي ''سرير'' أي تلـــك المعموديَّة التي تُمنح لمريض ملازم فراش الموت. ولكن سرعان ما انزوت هذه المعموديَّة، عندما شاعت معموديَّـــة الأطفـــال، وحدوث تطوُّر في طقس التَّوبة، وقبول التَّائبين في الكنيسة.

معموديَّة الذين يعتمدون من أجل الأموات

ظلَّت معموديَّة الذين يعتمدون من أجل الأموات، وهي إحدى المشاكل التي ظهرت في أيام القدِّيس بولس الرَّسول[١٤]، نسمع عنها في القرن الخامس في مجمع قرطاجنَّة المكاني الذي عُقد هناك سنة ٤١٩م وذلك في القانونَين (١٨، ٢٠) ففي القانون (١٨) يقول: ''لا يجوز أن تُعطى جُثث الموتى سرّ المعموديَّة ...''. وفي القانون (٢٠) يقول: ''... يجب ألاَّ يدفع القســـوس جهلُهُم إلى تعميد الأموات''. ولقد قدَّم **القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم** (٣٤٧-٤٠٧م) في عظته الحادية عشرة على الرِّسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، قدَّم عن هذه المعموديَّة الغريبة تفصيلات أغرب، فيقول:

> [إنَّه عندما يموت واحد من أتباع ماركيان الهرطوقي، يضطَّجع واحدٌ من الأحياء تحت سرير الميِّت، ثمَّ يطلبون إلى جُثَّة الميِّت إن كانت تستطيع أن تتقبَّل المعموديَّة، فيجيب الحيُّ عن الميت بالإيجاب، ويقبل المعموديَّة في مكانه بدلاً عن الميِّت][١٥].

ولكن من الغرابة أن نسمع عن هذه الممارسة أيضاً حتى إلى القرن السَّابع الميلادي، إذ كانت لا تزال عادة التَّعميد من أجل الأموات سارية بين النَّاس، ممَّا استلزم مجمع ترولو سنة ٦٩٢م، أن يُصدر القانون رقم (٨٣) لتحريمها، معيداً التَّذكير بقـــوانين سبقت في هذا الشَّأن.

---

[١٤] النَّص الذي أورده القدِّيس بولس، يقبل في هذا الخصوص تفسيراً طبيعيًّا جدًّا، لأنَّ النَّص لا يُقر أمراً بوجوب هذه الممارسة، لكنَّه يستخدم هذه الممارسة التي شاعت في ذلك الزَّمان، كحجَّة وبُرهان يؤكِّد ويُثبت وجود قيامة للأموات.

[15] Jean Chrysost., *Homil., Xl, in 1 Cor*. - *PG* LXI, col. 347.